اليهودية و الغنوصية

د.سنوسي فضيله[1]

لقد تعددت الدراسات حول التتبع التاريخي القديم، وحول مصادر البيئة التاريخية لحركة التواجد اليهودي في التاريخ، ومقومات النشأة الأولى حيث نلمس تقارب بعض الدراسات، في حين هناك تناقض بين الدراسات الأخرى.

ومن بين هذه الدراسات هناك دراسة أرجعت البداية الأولى والمبكرة لنشأة اليهود في العراق حيث أنه في القرن الخامس والعشرين (25 ق) كانت صحراء الجزيرة العربية قد قذفت من أحشائها أفواجا من البشر في دفعات متتابعة تعبر البادية اتجاه منطقة الهلال الخصيب، وحوالي عام 1800 ق.م كانت مجموعة من الرعاة الرحل والتي ترجع تاريخيا إلى بعض تلك الأفواج المهاجرة من الصحراء إلى منطقة الهلال الخصيب، استطاعت هذه الأفواج أن تستقر وأن تنتشر في العراق لتؤلف دولة يذكرها التاريخ باسم دولة "الكلدانيين"(2).

والجدير بالذكر أن "هذه الدولة قامت على أساس علاقات الصراع والقهر اليومي بين مجموعة من الرجال المتسلطين والمستغلين، وبين من اعتبروا أنفسهم كهنة فخلفوا بذلك طبقية وتفاوت، وكانت العلاقة السائدة هي علاقة استغلال".

نشأ النبي« إبراهيم عليه السلام »في هذا الجو، من وسط الطبقات الدنيا ويعتبر الأب الأكبر لكثير من الشعوب منها العرب واليهود، حيث ينسب إليه أول العهود الدينية المقطوعة مع الرب "فإبراهيم هو الشخصية المحورية في عصر الآباء، وهم مجموعة من الشخصيات التي سبقت موسى عليه السلام في التراث القديم منهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، وأبناء يعقوب المكونين للأسباط وبني إسرائيل" ويطلق على الإله الذي عبده الآباء اسم "يهوه" ولهذا الإله عدة ألقاب

---

[1] أستاذة مؤقتة شعبة الفلسفة، جامعة سعيدة، الجزائر

(2) د/-صابر طعيمة، التاريخ اليهودي العام، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، 1411هـ/1991م، دار الجيل، بيروت، ص05.

منها "إيل عليون، "و إيل عولام"، " إيل شداي"، " إيل بيتنيل"[3]، أما التسمية "يهوه" فهي متأخرة، عبد هذا الإله بصفة مطلقة في عصر موسى عليه السلام، ولكن هناك اختلاف في الرأي حول طبيعة ديانة الآباء، فهناك من يقول عنها أنها ديانة توحيدية بسيطة، وهناك من رأى أن "ديانة العبريين القديمة ديانة وثنية عرفت تعدد الآلهة، أما "يهوه" فقد كان واحدا من هذه الآلهة المتعددة واستقر الأمر عند العبريون في عبادته، ففي هذه الفترة تجلى معنى التوحيد ولكنه لم يكن خالصا، عندما ركز الآباء على عبادة "يهوه" وبالتالي كانت ديانة العبريين الأساسية ديانة تعدد وثنية، وجاءت بشائر التوحيد على أيدي الآباء من هم إبراهيم عليه السلام[4] . وعن هذه المرحلة يؤكد المؤرخون اليهود، على عدم وجود وحي مكتوب يعود إلى عصر الآباء وهذا الأمر جعلهم يعتقدون أنه لا يوجد بناء عقائدي وتشريعي متكامل لهذه الفترة التاريخيـــة، فالعبادة كانت بسيطة وقليلة الطقوس، وقد نبذ "سيدنا إبراهيم" عبادة الأصنام معترفا بإله واحد، وقد عاش سيدنا إبراهيم في أرض بابل وما جاورها في بيئة تعبد الأصنام، "ويشير عدد كبير من المؤرخين إلى أن أصل سيدنا إبراهيم يعود إلى الآراميون، وهم ينتمون إلى أصول عربية هاجرت من الجنوب في أزمة سابقة وبقيت اللغة الآرامية تحمل في جذورها السمات العربية "[5]

وعندما لم يجد منهم استجابة لدعوته هاجر إلى فلسطين وأقام في مدينة نابلس،ولكن لما حدث قحط وجدب بها هاجر إلى مصر" ولم يكن معه من النساء غير السيدة سارة، ومعه مجموعة قليلة لم تكن تمثل عصبة تستطيع حماية سيدها"[6]،

---

(3) د/- محمد خليفة حسن أحمد- تاريخ الديانة اليهودية وتطورها- الباب الرابع، الفصل الأول، الطبعة الأولى 1997، الناشر: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، عبده غريب ص187.

(4) نفس المصدر، ص188.

(5) د/-كامل سعفان- اليهود تاريخ وعقيدة- دار الاعتصام ص07.

(6) د/-صابر طعيمة- التاريخ اليهودي العام-الجزء الأول، الباب الأول، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية1411هـ-1991م ص12.

وقد وجدت إشارة في سفر التكوين إصحاح عشرين (20) "وسفر التكوين هو قسم من العهد القديم يسمى بالعبرية **ي"ريشيت"** بمعنى في البدء"، يحكي تاريخ العالم من بدء التكوين أو قصة آدم وحواء ونوح والطوفان وأولاده "سام "وحام "ويافث" ونسل سام "إبراهيم وإسحاق ويعقوب"، والعهد أو الميثاق"[7] ويقصد بالعهد في التاريخ اليهودي" ذلك الذي قطعه الإله نفسه لإبراهيم بأن يصطفيه دون العالمين، وأن يورث نسله أرض كنعان(فلسطين)، وقد تم تأكيد العهد لإسحاق ويعقوب. ثم جدد هذا العهد مع الشعب ككل في سيناء بعد الخروج من مصر.

" فهذا العهد حول جماعة إسرائيل إلى شعب مختار من الكهنة، وتحت تأثير الأنبياء ظهرت فكرة العقد المتبادل أي أن الشعب يطيع الإله ويتبع الشريعة، وفي المقابل الإله يرعاه ويحميه"[8]. ولكن أصبح فيما بعد العهد أبدي- "كما يحكي سفر التكوين" قصة إبراهيم وابنيه عليهم السلام وقصة يعقوب الملقب بإسرائيل وأبنائه الاثنا عشر(أسباط بني إسرائيل)- [1]، وكما سبق الإشارة إليه أن في سفر التكوين إشارة إلى أن النبي إبراهيم عندما اقترب إلى مصر طلب من "سارة" أن تدعي أنها أخته حتى لا يقتلوه وحتى يحظى برعاية وترحيب خير بسببها لأنها كانت فائقة الجمال، ولكن ليس كل ما جاء في سفر التكوين مطمئن، إذ أن التوراة تصف إبراهيم أنه نبي الله بنى بيتا للرب، ولا يجوز وصفه بصفات قبيحة، إذ لا يجوز أنه تحايل على فرعون واستعمل "سارة" وسيلة لتحقيق غاية بإدعاء أنها أخته.

وفي مصر أهداه فرعون "جارية" هي "هاجر" أنجبت له إسماعيل عليه السلام وارتحلت بابنها إلى الجنوب إلى واد غير ذي زرع ببيت الله المحرم، أما سارة فقد

---

(7) د/-عبد الوهاب المسيري،-موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية-الجزء الخامس ، مادة سفر التكوين، والعهد القديم .

(8) د/-.عبد الوهاب المسيري- موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية-لجزء الخامس ، مادة سفر التكوين، والعهد القديم.

(2) د/-.كامل سعفان، اليهود تاريخ وعقيدة، دار الاعتصام ،ص08.

(3)- نفس المصدر ،ص10.

أنجبت له "إسحاق" الذي أنجب "يعقوب" وخلف اثنا عشر ولدا، وهم الأسباط: "رأوين"، "شمعون"، "لاوي"، "يهوذا"، "بساكر"،"زبولون" ،"دان"، "بقتالي"،"جاد"، "أشير"، "يوسف"، و"بنيامين"[2]

استدعى يوسف أهله إلى مصر بعد أن كانوا يعيشون في فلسطين فرحلوا إلى مصر وكان"عددهم سبعين فردا، وعاشوا في مصر خمسمائة عام تقريبا، حيث تكاثروا فيها ووصل عددهم إلى سبعمائة(700) ألف تقريبا، في حين يرى بعض المؤرخون أنهم لم يتجاوزا عشرة ألاف لأن ما بين "موسى" و"إسرائيل" ثلاثة أباء، وهذا يستبعد أن يتشعب النسل في أربعة أجيال إلى مثل هذا العدد"[3].

ولما اشتد أذى الفراعنة لبني إسرائيل في مصر بذبح أبنائهم واستحياء نسائهم بعث الله "موسى" وأخاه "هارون" إلى "فرعون" فذهبا إلى فرعون ليدعواه إلى توحيد الله، وترك إدعاء الإلوهية وأراه "موسى" معجزة العصا التي تتحول إلى ثعبان ومعجزة اليد البيضاء فكذب وعصى والجدير بالذكر "أن ديانة موسى عليه السلام تمثل المرحلة الثانية من مراحل تطور الديانة اليهودية كعقيدة وشريعة، وهي أهم مرحلة في هذا التطور الديني، لأنه فيها تم الاعتماد على الوحي المكتوب كمصدر أساسي للعقيدة والشريعة، ولعل الأمر المهم الذي ينبغي ذكره أنه وكما أشارت بعض الدراسات ("أن الإله "يهوه" الذي عبده اليهود، ليس هو إله "إبراهيم" و"إسحق" و"يعقوب" عليهم السلام كما أشار إلى ذلك المؤرخون اليهود، فالتوراة لم تشر إلى وجود هذا الإله كما أنه لم يتم اكتشاف الاسم "يهوه" في نصوص تنتمي إلى الفترة السابقة لعصر"موسى" عليه السلام، إذ يؤكد بعض المؤرخين على أن "يهوه" قد عرفت عبادته في شبه جزيرة سيناء بين بعض القبائل العربية خاصة بين أهل "مدين" وأن موسى عرف الإله "يهوه" عن طريق "يثرون" والد زوجة "موسى"، وهناك إشارة

دالة على ذلك في التوراة تؤكد على أن "يثرون" كان كاهنا وعابدا لـ"يهوه" ومضحيا له")[9].

ولكن وحسب ما جاء في صفحات التوراة، أن العقيدة الأساسية التي تمت بلورتها خلال عصر "موسى" عليه السلام هي عقيدة التوحيد.وتعتبر الفترة الموسوية من أهم فترات تطور الديانة اليهوديـة، فهي الفترة التي أعطت للديانة اليهودية قواعدها، وأصولها الأساسية على مستوى العقيدة وكذلك على مستوى التشريع، وأيضا على مستوى العبادة، وهذه القواعد والأصول استندت إلى الوحي الإلهي كمصدر أساسي للعقيدة والشريعة، وهكذا اتضحت معالم الديانة وانتظمت في بناء ديني أخلاقي، ولعل التشريعات التي نشأت ارتبطت بعقيدة العهد، وهو في صياغته عهد تشريعي يشتمل على قوانين واجبة التنفيذ تتمثل في مجموع الأحكام هدفها تنظيم حياة الإسرائيليين وعلاقتهم بإلههـم، وكذا علاقتهم ببعضهم البعض، ويعتبر سفر الخروج -وهو يعرض تاريخ بني إسرائيل في مصر، ويحكي قصة موسى مع فرعون، كما يحتوي على متفرقات من أحكام شريعة موسى عليه السلام-[10] حاو لنص قانوني يسمى بكتاب العهد(الإصحاحات 21،22،23)، وهي مجموعة أحكام قانونية تحولت فيما بعد إلى تراث تشريعي ثابت، وقد ظهرت هذه التشريعات في صيغتين، أما الأولى اتخذت شكل الأمر مثل (لا تسرق، لاتزن، لا تسب الله)[11]، والثانية اتخذت الشكل الشرطي كما تمثله صيغة(إذا اشتريت عبدا عبرانيا فست سنين يخدم وفي السابعة يخرج حرا)[12]، وعدد كبير من التشريعات الواردة في سفر الخروج طبقت في عصر موسى، وهكذا تطورت الشريعة مع تطور العقيدة،

---

[9] د/-محمد خليفة حسن أحمد - تاريخ الديانة اليهودية وتطورها - الباب الرابع، الفصل الأول - الطبعة الأولى 1997، الناشر: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة-عبده غريب ص 194.

[10] د/-عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الجزء الخامس ، مادة سفرالخروج.

[11] - د/-محمد خليفة حسن أحمد - نفس المصدر ص195.

[12] -نفس المصدر ص195.

وتعتبر نص الوصايا العشر لموسى نصا عقائديا أخلاقيا اتخذ صورة قوانين، هذا هو طابع ديانة التوحيد التي جاء بها موسى، ودعى إليها فرعون، لكن هذا الأخير رفض وتنكر لذلك، ولما تغلب موسى على السحرة آمن به السحرة فقام فرعون بتعذيبهم وقتلهم، فأمر الله نبيه موسى أن يسري ببني إسرائيل ليفروا من فرعون وقومه ففتح الله لهم طريقا في البحر الأحمر، واتبعهم فرعون بجنوده فأمر الله موسى أن يضرب بعصاه البحر ففعل، وإذا به ينغلق، عبر بنو إسرائيل البحر ثم عبر فرعون وجنوده فانطبق البحر عليهم وغرقوا، خرج موسى ببني إسرائيل من مصر اتجاه صحراء سيناء لفتح الأرض المقدسة، ولما ذهب موسى لمناجاة ربه عند الطور استخلف عليهم أخاه هارون عليه السلام، فقام رجل إسرائيلي يدعى بـ (السامري) يجمع حلي الذهب من النساء وصنع بها عجلا ذهبيا له خوار وقال لهم:"هذا إلهكم وإله موسى"(سورة طه الآية88)، ودعاهم إلى عبادته فعبدوه إلا قليلا منهم ولما نهاهم "هارون عليه السلام "عن الشرك ردوا عليه:"سنظل نعبد العجل إلى أن يعود موسى من رحلته فإن أقرنا عبدنا وإن نهانا انتهينا"[13]، ولما عاد موسى عليه السلام وجد قومه قد أشركوا فأحرق العجل وألقاه في البحر ووبخ السامري وعاقبه ودعى الله أن يغفر لبني إسرائيل شركهم، وشعروا بذنبهم، بعدها اختار موسى سبعين رجلا من اليهود وتوجه بهم إلى جانب الطور ليعلنوا لربهم التوبة والندم، فدعى الله أن يغفر لبني إسرائيل وأن يسامحهم، ولكن اليهود طلبوا منه أن يروا الله جهرة فأنزل الله عليهم صاعقة ولكن موسى عاد ليرجوا ربه أن يغفر لهم ولما أمرهم أن يأخذوا التوراة قراءة وفهما وتطبيقا وامتثالا تمردوا وادعوا العجز فرفع الله جبل الطور فوق رءوسهم تهديدا وتخويفا، فأذعنوا لأمر الله وأعطوا العهد والميثاق على التمسك بالتوراة، ولكن نقضوا العهد فيما بعد ولما أمرهم موسى "بدخول فلسطين رفضوا والمانع لليهود من دخولهم فلسطين هو وجود

---

[13] -د/- صفوة الشوادقي- اليهود نشأة وتاريخا-دار التقوى للنشر والتوزيع ص52.

عمالقة سكنوها في ذلك الوقت"[14] فقال اليهود لموسى «يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون»(المائدة 22) وقالوا له أيضا «فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون»(المائدة 24) فعاقبهم الله بالتيه أربعين سنة وأن لا يدخلوا فلسطين لمدة أربعين سنة بدليل قوله تعالى«فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين»(المائدة 26).وقبل أن تنقضي هذه المدة (مدة العقوبة الربانية) كان موسى وهارون عليهما السلام قد فارقا الحياة وتولى "يوشع بن نون" خلافة بني إسرائيل وهو من ذرية يوسف وهذا ما نجده مشار إليه في سفر[15] يشوع.

"... وكان بعد موت موسى عبد الرب أن الرب كلم "يشوع بن نون" خادم موسى قائلا« موسى عبدي قد مات، فالآن قم أعبر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لهم-أي لبني إسرائيل-وكل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته...وتشجع لأنك أنت تقسم لهذا الشعب الأرض التي خلقت لآبائهم أن أعطيهم».[16]

واضح مما جاء في هذا النص أن موسى مات ولم تطأ قدمه تراب فلسطين كما هو مسجل في توراتهم، "فالتوراة تحاول في محاولات عديدة أن تضفي حول شخصية "يشوع بن نون" الذي خلف موسى على بني إسرائيل. وبقي معهم حتى الغزو المسلح لفلسطين معاني النبوة-مع أن من قاموا بتفسير التوراة وصفوا "يشوع" بصفات تناقض صفات النبي، بحيث وصفوه بأنه على غير خلق قويم وأنه رجل مستبد وطاغية في كل أمور الحياة ومن الناحية الدينية كان حسب ما وصفوه-مرتدا وكافرا- ودخل "يشوع" فلسطين وقسم المدن والقرى على الأسباط التسعة والنصف

---

14 -نفس المصدر -ص54-55.

(15) سفر وهي "سيفر" بالعبرية وتعني كتابا يشار إلى كتب العهد القديم بكلمة "أسفار" ويقسم السفر إلى إصحاحات ويقسم كل إصحاح إلى فقرات وتقسم كل فقرة إلى مقاطع (د/عبد الوهاب المسيري/موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية)، الجزء 05.

(16)د/- صابر طعيمة، التاريخ اليهودي العام، الجزء الأول، دار الجيل، بيروت،ص109.

بالقرعة واحتوت الإصحاحات من الثالث عشر إلى التاسع عشر أسماء المدن والحدود التي كانت من نصيب كل سبط [17]، هزمهم الفلسطينيون هزيمة منكرة بعد أن حاربوهم إلا أن الإسرائيليين انتصروا بقيادة "داود" عليه واستولوا على أورشليم (القدس) سنة 1000 ق.م، وقد كان لمملكة "داود" و"سليمان" عليهما السلام أهمية خاصة بالنسبة إلى الديانة اليهودية، "فهذا الحدث التاريخي فسر دينيا على أنه يعني تحقيق العهد المكتوب من الرب سابقا وهو الوعد بالأرض"[18]. بعد موت "سليمان" انقسمت المملكة إلى جنوبية وتشمل أحفاد "يهوذا" و"بنيامين" وعاصمتها القدس، وشمالية وتشمل باقي الأسباط الإثني عشر وعاصمتها السامرة وتسمى مملكة إسرائيل وهكذا فقدت "أورشليم" مكانتها كمركز ديني موحد، وفي ظل هذا الانقسام تسربت بعض العناصر الدينية الوثنية خاصة إلى المملكة الشمالية خاصة في عهد "أحاب" بعد زواجه من "إزابيل" الكنعانية والتي نشرت عبادة آلهتها الكنعانية بين الشماليين، وسمح "آحاب" للوثنية الكنعانية بالانتشار، فأعطى مواقع رسمية ووظائف في بلاطه لأنبياء "بعل" وهذا ما جعل أنبياء هذه الفترة يهتمون بمقاومة الوثنية خاصة أثناء القرن الثامن08 "غاموس"، و"هوشع" الذين يبدأ بهما عصر النبوة الكلاسيكية في تاريخ الديانة اليهودية[19].

اكتسح الآشوريون مملكة إسرائيل 721 ق.م فهاجر الإسرائيليون إلى أقطار كثيرة منها مصر، وقام "فرعون" مصر باكتساح مملكة "يهوذا" ومملكة الآشوريين سنة 608 ق.م، "وبعد فترة من الزمن عاد اليهود إلى الفسق والفجور فسلط الله عليهم أهل بابل(من العراق) بقيادة ملك بابل "بختنصر" واحتل مملكة "يهوذا" عام 586

(-17)نفس المصدر-ص111.

(18) د/محمد خليفة حسن أحمد-تاريخ الديانة اليهودية وتطورها- الباب الرابع، الفصل الأول، الطبعة 1-1997، الناشر، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، عبده غريب ص202.

(19) د/محمد خليفة حسن أحمد- ظاهرة النبوة الإسرائيلية- مطبوعات مركز الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة، مكتبة الزهراء 1991 .

ق.م، وحرق أورشليم وهدم المعبد وقصر "داوود"، ودمر هيكل "سليمان"، وسبى اليهود وأرسلهم إلى بابل وفر بعضهم إلى مصر، وأخذ التابوت إلى بلاده، وهو صندوق فيه بقايا مما ترك آل موسى وآل هارون".[20] واستمر احتلال البابليين لفلسطين مئات السنين عاش من خلالها اليهود في ذل وشقاء، وطال الأسر باليهود في بابل ستين عاما وهذا ما ساعد على الاختلاط بحضارة جديدة قضت على ما بقي من أصالة العبريين بدليل أن الدين اليهودي أصبح غير خاص باليهود، لأن الغلبة كانت للثقافة الكلدانية.

انتهت الأحداث السياسية التي تلت انقسام مملكة "داود" و"سليمان" عليهما السلام بسقوط المملكة الشمالية في يد الآشوريين عام 721 ق.م وسقوط المملكة الجنوبية بيد البابليين عام 586 ق.م، وفي هذه الفترة "ظهر عامل جديد هو بداية النبوة بمفهومها اليهودي وتطورت إلى أن أصبحت هذه الظاهرة الأساسية خلال فترة السبي الآشوري والبابلي، فالنبوة الإسرائيلية هي ظاهـــرة تاريخية، واستجابة دينية أو رد فعل ديني اتجاه الأحداث السياسية والتي بدأت بعد انقسام المملكة، ولم تقتصر النبوة الإسرائيلية على وظيفتها الدينية، بل تعدت إلى مجال السياسة، ولأن ملوك إسرائيل و"يهوذا" لم يصمدوا أمام الغزوين الآشوري والبابلي، فقد لعب الأنبياء دورا في النشاط السياسي، كما اشتركوا في كتابة التاريخ"[21] من بين هؤلاء الأنبياء (حجاي، زكريا، عوبديا، ملاحي، يؤيل).وعلى المستوى الديني، فقد اهتم الأنبياء بإحياء ديانة "موسى"، لأنها في اعتقادهم الفترة الدينية النموذجية في تاريخ الدين، لذلك طالبوا بالرجوع إليها والاقتداء بها. إنها حركة سلفية، ارتبطت بالقرن الثامن والسابع والسادس والخامس قبل الميلاد، ولكن الجدير بالذكر أن الأنبياء

---

(20) د/- صفوت الشوادقي- اليهود نشأة وتاريخا-دار التقوى للنشر والتوزيع، ص55 .

(21) الدكتور محمد خليفة حسن أحمد- تاريخ الديانة اليهودية وتطورها-الباب الرابع، الفصل الأول، الطبعة الأولى1-1997، الناشر/دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، عبده غريب، ص205.

أضافوا أمورا جديدة في الدين لم تكن موجودة من قبل منها عقيدة الثواب والعقاب. والمسيح المخلص، "أما فكرة الثواب والعقاب لم توجد لها إلا إشارات فقط في التوراة، وبالتحديد في الوصايا العشر. ولم تصبح هذه الفكرة عقيدة ثابتة في اليهودية إلا خلال فترة الأنبياء وفترة السبي، حيث ناقش الأنبياء مبدأ المسؤولية الفردية عن الأعمـال الإنسانية. واعتبروا الفرد مسؤولا عن أفعاله مسؤولية مباشرة أمام الخالق"[22].

والعقيدة الثانية التي ظهرت على يد الأنبياء وهي عقيدة المسيح المخلص."وهنا بدأت الفكرة المسيحانية تظهر، إذ بعد سقوط المملكتين، ظهر الاعتقاد بقدوم مسيح مخلص في المستقبل، يحقق الخلاص لقومه على المستوى السياسي والديني وقد انتشرت الأفكار المسيحانية، في كتب الأنبياء مثل(عاموس، وهوشع، واشعياء وآرمها وحزقيال...)" [23] . وقد دعوا إلى ضرورة التمسك بالوصايا العشر الموسوية، ونظرا لما أصاب الحياة الإسرائيلية في فترة السبي أثر على الجانب الاقتصادي والاجتماعي، فقد إهتم الأنبياء بالجانب الأخلاقي الذي إهتم به موسى قبلهم في وصاياه العشر. "ولكن الجديد الذي جاء به الأنبياء في هذا الجانب هو تركيزهم على الطقوس والشعائر الدينية، وإهمال التطبيق الأخلاقي لمبادئ الدين في السلوك الإنساني. فاهتم الأنبياء في فترة السبي ببعض الجانب الأخلاقي الروحي في الديانة اليهودية، "وعلى المستوى التشريعي فقد اهتم الأنبياء بتشريعات موسى، وبدأت جهود تدوين الشريعة خلال فترة السبي، وبعده بالتحديد في عصر "عزرا" الذي دون التوراة وثبت نصوصها خلال فترة الحكم الفارسي لفلسطين. وبعد ما فتح "قورش الفارسي" أرض بابل سنة 538 ق.م، وسمح لليهود بالعودة إلى فلسطين. ولكن البعض من شباب اليهود لم يتحمسوا للفكرة لأنهم رفضوا أن يتركوا

---

(22) د/-محمد خليفة حسن أحمد- تاريخ الديانة اليهودية وتطورها- الباب الرابع-الفصل الأول- الطبعة1-1997-الناشر-دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع- القاهرة-عبده غريب ص206/207.

(23)- نفس المصدر ص208 .

حقولهم الخصبة وتجارتهم الرائجة في بابل، ومرت سنتان بعد مجئ "قورش" وبدأت الفصيلة الأولى من اليهود في رحلتها التي دامت ثلاثة أشهر نحو فلسطين وتتابعت الفصائل بتشجيع من "قورش" حتى بلغت 42 ألف"[24]، وبعد العودة بنوا مذبحا على موقع المعبد، ولم يتم البناء رغم أن النبي "زكريا" و"حجاي"، حاولا إتمام البناء. ولكن الحالة الاقتصادية حالت دون ذلك إلى أن قام "عزرا" بمساعدة من ملك فارس"أرتكسيس"(424/465 ق.م) الذي أباح له أن يأخذ معه إلى "أورشليم" كل يهودي يريد العودة، فرحل مع "عزرا" ستة ألاف (6000) يهودي منهم الكهنة واللاويين، فغيروا الديانة التي كانت سائدة في فلسطين، وأدخلوا عليها التنبوءات اليهودية الجديدة التي ظهرت في فترة السبي(الثواب، العقاب والمسيح المخلص) وفي هذه الفترة اكتمل كتابة أسفار "موسى" الخمسة(التوراة).ومثلما كان للثقافة البابلية تأثيرا على الديانة اليهودية، كذلك "اكتسبت هذه الأخيرة من الديانة الفارسية، فكرة الإيمان بالبعث والحساب وبأن هناك محاكمة قاسية يجريها الخالق ويذهب المؤمنون إلى الجنة، وصار اليهود يؤمنون بوجود قوة الشر، سموها الشيطان. وكانوا ينظرون إلى "قورش"(ملك فارسي) على أنه (المخلص) الذي كانونا ينتظرونه"[25]. وفي سنة (332ق.م) دخل الاسكندر المقدوني فلسطين، واحتل القدس فخرج إليه اليهود فرحين داعين أن يخلصهم من نير الفرس، جاحدين لفضل "قورش"، وبعد وفاة الإسكندر سنة (323 ق.م)، أصبحت فلسطين في أيدي السلوقيين. وظلت مسرحا للاضطرابات بتداولها السلوقيين والبطالمة « وفي هذه الفترة تأثرت البلاد بالحضارة الهيلنية، حيث ترك الكثيرين عادة "الختان" التي أخذوها من المصريين، وصاروا يأكلون لحم الخنزير، ويذبحون داخل المعبد. أما بعض المثقفين اليهود فقد هاجروا إلى الإسكندرية»[26]، ودرسوا الفلسفة اليونانية

([24]) - د/كامل سعفان/ اليهود تاريخ وعقيدة- دار الاعتصام- ص22

[25] - د/-كامل سعفان/ اليهود تاريخ وعقيدة- دار الاعتصام ص23.

حيث تم التزاوج بين الفكر اليوناني والديانة اليهودية وقد حول"أنطيوخوس أبيقانوس" (164/175 ق.م) المعبد اليهودي دارا لعبادة الإله (زوس)، وحرم تقديس يوم السبت، وأقام كثيرا من المعابد الوثنية وأجبر اليهود على تقديم القربان لها. ونظرا لهذا الإذلال الذي عاشه اليهود ثار الكاهن اليهودي"ميتاس" والتف حوله عدد من اليهود لتنتهي هذه الحركة في يوم من أحد أيام السبت بفتك ذريع لليهود،وجعل الحاخامات هذا اليوم هو يوم للدفاع عن النفس، بعد ذلك تجددت الثورات بقيادة أبناء "ميتاس" لتحرير الأرض. فأحرز"يهوذا بن ميتاس" انتصارا على الملك السلوقي وحرر القدس واستعاد المعبد سنة(165 ق.م)، ثم جاؤوا الرومان فأخضعوا اليهود إلى أن عقد اليهود مع السلطات الرومانية صلحا منحوا بموجبه حرية العبادة. ولكن بعد حريق روما أتهم "نيرون" المسحيين واليهود، وأنزل بهم أقسى ألوان القتل والتعذيب.

ثار اليهود ضد الرومان، ولكن القائد الروماني"تيتوس" دمر "أورشليم" وأحرق الهيكل وبنى معبدا للإله"جوبيتر" واختص "نيتوس" صديقه "فرنتو" بيهود أورشليم ليعذبهم، فأرسل اليهود الأقوياء إلى مصر ليعملوا في المناجم، وبيع الأطفال والنساء في الأسواق الرومانية بأثمان رخيصة وتشرد الكثيرون في بقاع الأرض، خاصة في بلاد ما بين النهرين والجزيرة العربية ومصر.« وبمجيء القائد الروماني"هادريان" أعلن سنة (130م) أنه يعتزم بناء معبدا لـ"جوبيتر" في مكان الهيكل فأصدر مرسوما بتحريم عادة الختان، وتعليم الشريعة اليهودية علنا، وحرم الإسبات والاحتفال بأي عيد يهودي، وفي ثورة(باركوشيبا) التي استمرت ثلاث سنوات، دمر الرومان تسعمائة وخمس وثمانين 985 مدينة وقرية في فلسطين وذبحوا ثمانين ألف يهودي.

ونتيجة لقسوة "نيرون" و"ترجان" و"هادريان" القادة الرومانيين هدأت ثورات اليهود، وتفرغ أحبار اليهود لكتابة الكتب الدينية، فكتبوا التلموذ البابلي والفلسطيني»[27].

« والتلموذ كلمة مشتقة من الجذر العبري "لامد" الذي يعني الدراسة والتعلم، وهو من أهم الكتب الدينية عند اليهود وهو الثمرة الأساسية للشريعة الشفوية، أي هو تفسير الحاخامات للشريعة المكتوبة (التوراة) والتلموذ مصنف للأحكام الشرعية أو مجموعة القوانين الفقهية لليهود فهو موسوعة تتضمن الدين والشريعة والتأملات الميتافيزيقية والتاريخ الآداب والعلوم الطبيعية، ولكن وجهات النظر في هذه الميادين متناقضة، وهناك تلموذان، التلموذ الفلسطيني، ينسبه اليهود خطأ إلى أورشليم (القدس) مع أن القدس خلت من المدارس الدينية بعد هدم الهيكل الثاني، فأنشأ الحاخامات يفنه وصاقوريه وطبريه. أما التلموذ البابلي هو نتاج الحلقات التلموذية في العراق وأشهرها سورا ونهازذعه و بوموديثا. ويعرف هذا النوع باسم "تلموذ أهل الشرق"»[28].

ومثلما تأثرت الديانة اليهودية بثقافة الفراعنة والبابليين والفرس، كذلك تأثرت بالمنهج اليوناني. فالمنهج اليهودي ديني أساسه الوحي، والذي يعتبر المصدر الأول والأخير للمعرفة، أما المنهج اليوناني هو العقل فهذا الأخير مصدره إنساني، والعقل هو مصدر كل معرفة وينكر الوحي. فظهرت مشكلة الأخذ بالعقل اليوناني أو تركه، هذا الأمر جعل اليهود ينقسمون إلى «رافضين للثقافة العقلية اليونانية، واعتبرت ذلك خطر على الديانة اليهودية، وفريق ثاني رحب بالثقافة اليونانية واعتبرها انفتاح ومخرج للديانة اليهودية من الجمود الفكري الذي أصابها على يد الكهنة، وأما القسم الثالث حاول التوفيق بين الديانة اليهودية والعقلية اليونانية أي بين العقل والوحي،

---

[1]- د/-كامل سعفان/ اليهود تاريخ وعقيدة- دار الاعتصام ص23.

ص25 .

[28]د/- عبد الوهاب المسيري- موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية - الجزء الخامس- مادة (التلموذ) .

فاستعملوا المنهج العقلي اليوناني في شرح الديانة اليهودية وتفسيرها تفسيرا عقليا ودليل هذا التأثر هو ظهور آثار التفكير اليوناني في سفر الجامعة الذي تسيطر عليه نزعة عقلية تشاؤمية لا تتناسب مع الرؤية الدينية لكتاب العهد القديم. كذلك أثرها الواضح في بعض الكتابات التلموذية.

فالفيلسوف اليهودي "فيلون" مثلا اعتبر اليهودية نسقا فلسفيا كاملا، واستخدم المجاز والتأويل في شرح الأجزاء التاريخية، وحاول توحيد المعرفة الفلسفية والمعرفة الدينية».[29]

وبعد إعلان"دفلريانون"(282-305م) المسيحية دينا رسميا للبلاد أصبحت القدس عاصمة مسيحية وأصبحت اليهودية بدعة، ولقي اليهود من المسحيين اضطهادا كبيرا. «وفي القرن الرابع ميلادي، عقد صلح بين الكنيسة والدولة الرومانية يفضي إلى اعتبار اليهودية العدو الأول للمسيحية عقائديا وسياسيا، صدرت مجموعة من القوانين المعروفة باسم القوانين "قسطنطين"، وصدر قرار 18 أكتوبر سنة315م يقضي بمحاربة كل يهودي يتعرض ليهودي دخل المسيحية بالحرق» [30]، وتتابعت القوانين القيصرية الخاصة بإنزال العقوبات بهم، حتى ظهر الملك الفارسي "خسرو الثاني" الذي حارب الروم وسقطت في يده أورشليم، فاشترك اليهود مع الفرس في التنكيل بالمسيحيين وخربوا الكنائس، وأجبروا العديد من المسيحيين إلى اعتناق اليهودية ثم عاد اليهود وخانوا الفرس، فعاد القائد الفارسي إلى التنكيل بهم، حينها قام اليهود بالتودد إلى القيصر"هراقليطس" فاستجاب لرغبتهم، وأنتقم من الفرس، واستعاد أورشليم. وثأر للمسيحيين من اليهود، وفي سنة (439م) صدر تشريع ينص على منع اليهود من أن يتنصبوا مناصب، أو يحملوا أنواط شرف، والجدير بالذكر أن

([29]) د/-محمد خليفة حسن أحمد، / تاريخ الديانة اليهودية وتطورها- الباب الرابع-الفصل الأول- الطبعة01-1997-الناشر- دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع- القاهرة-عبده غريب ص210-211 .

([30]) د/-. كامل سعفان/ اليهود تاريخ وعقيدة- دار الاعتصام 26 .

العلاقة بين اليهود والمسيحيين علاقة قلقة منذ البداية رغم أن الأصول التاريخية والدينية الرابطة بين الديانتين، باعتبار"عيسى" عليه السلام هو في الأصل نبي من بني إسرائيل، والمسيحية اعترفت بمحتويات الديانة اليهودية، واعترفت بالكتب المقدسة، وضمت كتاب العهد القديم إلى العهد الجديد في كتاب واحد هو(الكتاب المقدس)، ولكن رغم ذلك كان هناك اختلاف بين الديانتين حول شخص المسيح عليه السلام . حيث لم يعترف اليهود بأنه هو المسيح المخلص، ورفضوا فيما بعد الاعتقاد في ألوهية المسيح، «وقد استفادت من نقد المسيحية لها، ومن أهم هذه الانتقادات سيطرة الطقوس، والشعائر على الحياة الدينية اليهودية فهذا ما جعل الدين اليهودي يتجمد وينعدم فيه الجانب الروحاني وسيطرة الكهنوت على الحياة الدينية، وانهماك اليهود في الحياة المادية وإهمالهم للجانب الروحاني» [31].فبهذه الانتقادات حاولت إصلاح نفسها على فترات زمنية.

بسبب ما أصاب الإسرائيليين من تدمير إثر الغزو البابلي والروماني هاجروا إلى شمال الحجاز«وكانت منهم بطون " بني النضبير"، "وبني قريضة"، "وبني قينقاع" "وبني المصطلق" . ووجد هؤلاء اليهود بين القبائل العربية الأمن والسلام، وجادت العروبة على اليهود باللغة فأجادوها، ولم يستعملوا اللغة العبرية إلا في صلاتهم، وصار منهم الشعراء، والخطباء، والحكماء واكتسبوا بعض الخلال العربية. واشتغلوا بالزراعة وتربية المواشي وصناعة السيوف والدروع عند "بني قينقاع"»[32]، ولكن لم تدم هذه العلاقة بين اليهود والمسلمين على هذا الحال، حيث نشب صراع بينهما في المدينة المنورة، لم تكن أسبابه دينية وإنما سياسية، لأن الإسلام منذ البداية منحهم حرية التدين، وبمجرد انتهاء المشاكل السياسية بدأت اليهودية تنتظم في داخل المجتمع الإسلامي الذي تكفل دينيا وتشريعيا بحماية اليهود. «انتقد الإسلام الديانة

([31]) د/-.محمد خليفة حسن أحمد، / تاريخ الديانة اليهودية وتطورها-الباب الرابع/ الفصل الأول/الطبعة1 -1997 الناشر دار فقباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة عبده غريب ص213.

([32])د /-كامل سعفان/ اليهود تاريخ وعقيدة- دار الاعتصام ص27.

اليهودية واهتم اليهود بدراسة هذا النقد محاولين إصلاح اليهودية، ولكن انقسموا إلى قسمين، أما فريق الحاخامين رفضوا هذا النقد، وفريق القرائين استجابوا لهذا النقد، الذي كان تأثيره في تطور الديانة اليهودية خاصة فيما يتعلق بوضع اليهودية في بناء ديني متكامل. وهذا ما عجز عنه اليهود وفشل فيه علماء التلموذ، وراو أن القرآن الكريم اشتمل على بناء واضح ومباشر للعقيدة الإسلامية والشريعة الإسلامية مما سهل على المسلمين من العلماء استخراجها وشرحها في أمهات الكتب. في حين خلت كتبهم المقدسة منها العهد القديم والتلموذ من هذا البناء العقائدي للدين»[33]. فراحوا يعيدون دراسة كتبهم المقدسة دراسة جديدة تمكنهم من وضع نسق أو بناء ديني متكامل لديانتهم. وبفضل المسلمين نجحوا في وضع بناء عام للدين اليهودي. منها محاولة العالم اليهودي المصري "سعديا ابن يوسف الفيومي" في القرن العاشر ميلادي في توضيح أركان الإيمان في اليهودية ومحاولة العالم اليهودي "موسى بن ميمون" في القرن الثاني عشر ميلادي الذي قام بتنظيم العقائد اليهودية، وتنظيمه سائد بين جموع اليهود إلى يومنا هذا « فحدد عقيدة اليهود في ثلاثة عشر عقيدة منها: الاعتقاد بوجود الخالـــق، ووحدانيته، تنزيهه، أزليته، وتخصيص العبادة له... ».

« في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، أثار اليهود الفتن بين الأوس والخزرج لدرجة أن بعضهم لبس ثوب الإسلام ليطعنوا الإسلام باسم المسلمين واتخذوا المسجد وحلقات العلم مجلسا يتسقطوا أخبار المسلمين وينقلوا ذلك إلى اليهود وحلفائهم من المشركين، لم يشارك اليهود في موقعة أحد بقصد تخذيل المسلمين، ونصب يهود بن النضير كمينا لأربعين مسلما ذهبوا يعلمون قبائل نجدية أمور الدين وقتلوهم عن آخرهم إلا واحدا أخبر ما حدث فذهب إليهم الرسول عليه الصلاة والسلام ليتحدث بشأن ما حدث، فكادوا أن يقتلوه فأنذرهم الرسول بالخروج قبل عشرة أيام فرفضوا وحاصرهم حتى استسلموا وتم جلاءهم، فريق إلى الشام

([33]) د/-محمد خليفة حسن أحمد- نفس المصدر- ص214.

وفريق إلى خيبر» [34]. وفي عهد عمر رضي الله عنه لما تسلم بيت المقدس من البطريك "صف ونيوس" سنة (636م) اشترط هذا الأخير في معاهدة مع عمر منع اليهود من الإقامة في المدينة المقدسة. «وفي عهد "عثمان" نشط اليهود الذين لبسوا ثوب الإسلام وظلوا يؤلبون المسلمين على عثمان بدعوى أنه ليس أحق بالخلافة، وأن الخلافة لعلي وكانت دعواهم من عوامل قتل عثمان رضي الله عنه.وفي عهد الخلفاء الراشدين عاش اليهود متمتعين بكل الحقوق الدينية والاجتماعية التي كفلها الإسلام» [35].

وفي العصر العباسي تمتع اليهود بحياة أكثر يسرا ورحابة، حيث فتح لهم المجال لتفتق مواهبهم وقدراتهم العلمية، وفي هذا العصر ترجمت التوراة والتلموذ إلى العربية، « وبلغ عددهم في العراق ستمائة ألف أنشئوا بها مستعمرة كبيرة حتى سقطت المدينة في أيدي المغول، وكان بهذا المستعمرة عشر مدارس ربانية وثلاثة وعشرين كنيسة» [36].

« وفي الأندلس تمتع اليهود بحرية أكبر وكان "حسداي بن شيروط" اليهودي يتولى استقبال الدول الذين كانوا يفدون على البلاط الأموي في عهد "عبد الرحمن الناصر" وجاء عهد الموحدين خيروا اليهود بين الإسلام والخروج من البلاد فخرج الكثير منهم وتظاهر البقية بالاسلام» [37]، في العصر الإخشيدي كان لليهود محاكمهم الخاصة، وبلغ عددهم في العصر الفاطيمي خمسة ملايين نسمة، وقد أباحت الدولة الفاطمية لليهود ممارسة شعائرهم الدينية وشاركتهم في أعيادهم، «وفي العصر الأيوبي توسط لدى صلاح الدين طبيبه الخاص "موسى بن ميمون" فتدفق اليهود من بلدان أوربا إلى فلسطين ومصر» [38]، وبمجيء العثمانيين فتحوا

([34]) د/- كامل سعفان/ اليهود تاريخ وعقيدة- دار الاعتصام ص30.
([35]) - نفس المرجع السابق- ص31.
([36]) - نفس المصدر -ص34.
([37]) - نفس المصدر- ص34.
([38]) د/- كامل سعفان -اليهود تاريخ وعقيدة -دار الاعتصام - ص35.

لليهود أبواب الوظائف الحكومية والمهن الحرة حتى وصلوا على أعلى المراتب لدرجة أن أطباء سلاطين "آل عثمان" كانوا يهودا واستعادوا وجودهم في البلقان وفي قلب أوربا.

وبعد أن احتلت انجلترا فلسطين وجعلتها تحت الانتداب وأعطى "بلفور" وزير خارجيتها لليهود وعدا بإقامة وطن قومي هناك وتم إعلان الدولة اليهودية سنة 1948م.

هذا عن تاريخ نشأة اليهود واليهودية وتطورهما عبر التاريخ، ولعل أهم ما يمكن استنتاجه بعد هذه الدراسة التاريخية، أن التوراة التي أنزلها الله تعالى على سيدنا "موسى" عليه السلام حاول الحاخامات تفسيرها وشرحها، وكتبوا التلموذ، ويسمى هذا التفسير بالشريعة الشفوية «وباللغة العبرية "توراة شبعل به"، وهي مجموعة فتاوى وأحكام وأساطير وحكايات وخرافات وضعت لشرح وتأويل أسفار العهد القديم، وتناقلها حاخامات اليهود شفهيا على مدى قرون طويلة ثم دونت في القرن الثاني ميلادي في التلمود».[39]

لقد أثرت الغنوصية على الدين اليهودي خاصة وسط طائفة الفارسين التي سادت في الفترة ما بين القرن الأول قبل الميلاد، وكان لها تأثير على الدين المسيحي حيث استقت الكنيسة منها قوانين وأحكام لاهوتية "[40].

تأثر الدين اليهودي من بعد "موسى" بالعقائد الوثنية للمجتمعات المجاورة والتي تضم مفاهيم حلولية وتضم أيضا مفاهيم تعدد الإله ،فأصبحت اليهودية خليطا من المفاهيم الشركية والحلولية ،وهذا يجعلنا نقول بوجود بعد حلولي قوي في اليهودية وكذلك لوجود غنوصية يهودية قديمة يعود تاريخها إلى ما قبل غنوصية القرون الميلادية الأولى بدليل وجود نصوص عديدة في العهد القديم يمكن تفسيرها تفسيرا غنوصيا ،وقد أشار "جوزاف دان **Joseph Dan** في كتابه KABBALAH a very

---

([39])د/- عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية، الجزء 05 مادة (الشريعة الشفوية).

[40]/- Encycopedia britanica vol7 p 214

short introduction" أن المتصوف اليهودي "غارشوم شوليم" هو أول من عرف فكرة (الغنوصية الروحية)،وقد وجدت أول مرة في كتاب القبالة "الباهير"،بمعنى روحانية الطبيعة وقد آمن "غارشوم" بأن الأفكار التي وجدت في الباهير أخذت من مصادر خارجية أو على الأرجح من الغنوصية المسيحية،ومن الممكن أيضا أن تكون قد أخذت من المدارس التقليدية الغنوصية اليهودية القديمة ثم انتقلت عبر الأجيال "[41] ،وقد قام المفكر والمتصوف اليهودي (غارشوم شوليم) وآخرين،في منتصف القرن العشرين بتصنيف كتاب"الباهير" فاكتشف أنه يتضمن الغنوصية المسيحية وقد تحدث في مقالاته عن امتداد الغنوصية اليهودية إلى الغنوصية المسيحية "وقد اعتبر عالم اللاهوت البروتستانتي الألماني "رودولف بيلتمان" أن الغنوصية تدخل ضمن قواعد المسيحـــية " [42]،وهي فكرة ترجح أيضا إرجاع الغنوصية اليهودية إلى الغنوصية المسيحية التي وجدت في العصور الوسطى وقد كان الغنوصيون اليهود يشيرون إلى الإصحاح الأول في سفر "التكوين" الفقرة رقم 27 " فخلق الإله الإنسان على صورته على صورة الإله خلقه،ذكرا وأنثى خلقهم" ،وهذا ما يعرف في الغنوصية "بالمشاركة "،إذ يشير "بول تلش" إلى أن " الغنوصية لها عدة أوجه للمعرفة منها التصوف ومنها المعرفة بالمشاركة ،وهي علاقة مثل التي تكون بين الزوج والزوجة فهي ليست ناتجة عن البحث التحليلي والتطبيقي وإنما هي معرفة بالإتحاد ،وهذا المفهوم نجده في التصوف اليهودي ،خاصة القبالة اللوريانية ،التي تقوم على أساس اشتراك الإنسان مع الإله في عملية الخلاص ،بمعنى آخر لا يتم الخلاص إلا من خلال معرفة لدنية غنوصية" تؤدي بالإنسان إلى معرفة الإله ،الخلاص هو اتخاذ الذات الإنسانية مع الذات الإلهية " [43] .فالغنوصية هي شكل

---

[41] /-- JOSEPH DAN -KABBALAH A VERY SHORT INTRODUCTION OXFORD UNIVERSITY PRESS 2006P22

[42] /- نفس المرجع ص22

[43] /-بول تلش-تاريخ الفكر المسيحي من جذوره الهيلينية واليهودية حتى الوجودية -ترجمة/وهبة طلعت أبو العلا -الجزء الأول-دار الهدى للنشر والتوزيع - المنايا -مصر - الطبعة2005/2 ص44 .

من أشكال التصوف الحلولي،الذي ينادي بوحدة الوجود ،وهذا هو الشبه بينها وبين القبالة التي فسرت طبيعة الكون والخلق من خلال التفسير وحدة الوجود والفيض الإلهي " وهذا الأخير واحد من المفاهيم الأساسية في التصوف اليهودي ،فالقبالي يؤمن بوجود (الأين سوف)(ein sof) أي الإله الخفي والفيض الإلهي "الذي ينبثق منه "الأدم قدمون "الإنسان الأول " فمن خلال فكرة الفيض الإلهي يفسر القبالي كيف خلق الكون "وعلاقته بالخالق وعلاقة شعب اليهود بالإلـــه .والفيض الإلهي هو التجليات النورانية العشرة في القبالة،وما يسمى (بالسيفروت)،وهناك التعبيري الأنثوي للإله ويسمى"الشخيناه" وهذه كلها مفاهيم تشير إلى التشابه الكبير بين التصوف اليهودي "الغنوصية " إذ أن " الأين سوف" في القبالة هو الإله الخفي في المنظومة الغنوصية،وكل منهما يحدد نفس الطبيعة لهذا الإله بمعنى كلاهما يفسران طبيعة الإله تفسيرا واحدا ،فالإله "جوهر لانهائي مطلق ولا محدود،وهو سبب الوجود، يفيض العالم عنه" فعملية الفيض في الغنوصية تسمى ""الأيونات" (وفي القبالة تسمى التجليات النورانية العشرة وبالتالي) "التجليات النورانية والأيونات فاضت كلها من الإله الخفي الأين سوف حتى تم سد الفجوة بين الإله الخفي والعالم من أجل تحقيق الخلاص" [44] .إضافة إلى هذا التشابه،نجد تشابه آخر بين المنظومة الغنوصية،والقبالة بحيث يشير كل منهما إلى وجود عنصر أنثوي هو "صوفيا" في الغنوصية،وفي القبالة يسمى "الشخيناه"،فالقبالة والغنوصية يتفقان في تفسير طبيعة الإله "أما عن الطريقة التي وجد بها الخلق أو الكون ،فإنها عملية تأخذ شكل فيض وسلسلة لا تنقطع كما أن الإله أحيانا في كل من القبالة والمنظومة الغنوصية يأخذ شكل إله خنثى (ذكر وأنثى) وتأخذ عملية الخلق شكل انفصال بين العنصريين " [45] .

---

[44] /-عبد الوهاب المسيري -موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية - ج 5 -ص39 .

[45] /- نفس المصدر- ص 39 .

إضافة إلى اتفاقهما في تفسير الكيفية التي خلق بها الكون، وكذلك طبيعة الإله ،هناك تشابه آخر بين القبالة والغنوصية، حول عملية الخلاص، فاليهود يؤمنون بقدوم هذا اليوم لأن الإله وعدهم بذلك،واصطفاهم من بين جميع الشعوب وسيبعث إليهم "المشيح" ليخلصهم من المعاناة،وذلك عند استيلائهم على أرض فلسطين، وعملية الخلاص كما فسرتها القبالة تأخذ شكل اقتراب تدريجي من الخالق بالدعاء والصلاة، إلى أن يتحقق التوحد الكامل وهو توحد جنسي في القبالة الإله الأب مع" الشخيناه " وهي التجلي الأنثوي للإله، وهي أيضا تعني الرابط بين الإله والشعب لإصلاح الخلل الحادث في الكون "ويقال أن الخلاص كان قد اقترب لحظة اتحاد الابن الملك في صورة موسى عليه السلام مع "الشخيناه" فوق جبل سيناء . وبسبب خطيئة عبادة العجل الذهبي نفيت الشخيناه مع الشعب خارج فلسطين،وحتى تعود معه إلى الأرض المقدسة لابد أن يلتزم الشعب بالشريعة وبتعاليم التوراة ويردد الدعاء القبالي من أجل توحد الواحد المقدس الحمد له مع أنثاه الشخيناه" [46].

هكذا تفسر القبالة معنى الخلاص وكيفية حدوثه والطريق المؤدي إلى حدوثه وتستخدم أيضا كلمة "يحود" لوصف هذا التوحد، وهي كلمة تعني التوحد مع الخالق ،أما عن مشكلة الشر في العالم وكيفية حلها ،فإننا نجد كل من القبالة والغنوصية يتفقان مرة أخرى في تفسير هذه الظاهرة ،فكل منهما سعى إلى حل هذه المشكلة عن طريق قصص أسطورية جوهرها إسقاط البعد الأخلاقي للقضية "أما عن أسباب وجود الشر فإن المنظومة الغنوصية ترى أنه ينجم عن خديعة الإله الصانع :إذ هو يسرق الشرارة الإلهية ويحبسها في المادة،وفي المنظومة القبالية ،يقال أن الشخيناه تلد الشر دون أن تدري ،إذ يقوم أحد الشياطين بتقمص شكل الإله (الأين سوف) ويعاشرها جنسيا ،فتلد الأغيار(الشعوب الغير يهودية)،وتنجب أيضا

---

46 د/-رشاد شامي-موسوعة المصطلحات الدينية اليهودية - المكتب المصري لتوزيع المطبوعات -القاهرة2001 ص151 .

الشياطين الذين يحولون العالم إلى مكان معاد لليهود"[47] ،والجدير بالذكر أن أوجه الشبه عديدة بين القبالة والمنظومة الغنوصية وأن كلمة الصوفية لها داخل النسق الديني اليهودي دلالات خاصة ،حيث يتسم هذا النسق بوجود طبقة جيولوجية ذات طابع حلولي قوي تراكمت داخله بدءا من العهد القديم والشريعة الشفوية، وانعكست هذه الحلولية من خلال أفكار تمسك بها اليهود مثل الشعب المختار وأمة الروح،والأرض المقدسة.

فالقبالة من خلال ارتباطها بالغنوصية وضعت أسس التفسيرات الصوفية الحلولية في الزوهار و"الباهير"وحل هذا التراث محل التوراة والتلمود. إذ أن القبالة احتوت على نوعين من التصوف«الأول يدور في إطار توحيدي يصدر عن الإيمان بالإله بتجاوز الإنسان والطبيعة والتاريخ، فهو يؤمن بالثنائيات الدينية، سماء/ إنسان/ طبيعة/ إله/ إنسان ويقترب المتصوف في هذا النوع من الإله من خلال كبحه جماح جسده والزهد في الحياة تعبيرا عن حبه للإله ».

«أما النمط الثاني من التصوف القبالي، فيدور في إطار حلولي يصدر عن الإيمان بالواحدية الكونية حيث يحل الإله في الطبيعة والإنسان والتاريخ، ويتوحد معها ويصبح لا وجود له خارجها. وفي هذا النوع يأخذ التصوف شكل التفسيرات الباطنية وصنع التمائم والتعاويذ، ويبحث المتصوف عن الصيغ التي يمكن من خلالها التأثير في الإرادة الإلاهية فهدف المتصوف في هذا النوع هو الوصول إلى الإله والالتصاق به، التوحد معه يصبح المتصوف عارفا بأسرار الإلهية»[48] ،وعليه يمكن القول أن التصوف اليهودي بصفة عامة هو واحد من النمط الحلولي ذو اتجاه غنوصي، إذ يتجه فيه المتصوف إلى فهم طبيعة الإله من خلال التأمل والمعرفة الإشراقية الكونية. أو ما يعرف بالغنوص والعرفان.

---

[47] د/- عبد الوهاب المسيري -موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية -ج5 ص 40 .

([48]) - د/ عبد الوهاب المسيري- موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- ج5 -ص131

ويمكننا القول أنه ونظرا لأهمية العهد القديم، باعتباره حاملا للتراث الديني اليهودي، فقد اهتم "حاخامات" اليهود بتفسيره وشرحه، فأعطوا أنفسهم الحق في إصدار تفسيرات وتشريعات لا تستند بالضرورة إلى النص، واعتبروا تفسيراتهم لها منزلة أعلى من النص نفسه، لأن التوراة بعد أن أعطاها الإله للإنسان أصبحت خاضعة لتفسيره «وقد جاء التلمود أن الإله وافق على أنه يجب أن يفسروا الحاخامات ما قاله هو»[49] ،فأنتجوا التلمود وأصبح أهم الكتب المقدسة، رغم أن هناك من عارض تفسير الحاخامات مثل "السومريون "والقراءون."

ولم يكن تفسير "الحاخامات"، هو تفسير الوحيد للتوراة، بل هناك التفسير القبالي، الذي ظهر في القرن الرابع عشر جنبا إلى جنب مع الدراسات التلمودية وانتشرت التفسيرات القبالية حتى سادت تماما مع القرن السابع عشر(17).

وقد وجدت التفسيرات القبالية للتوراة، أو العهد القديم في كتبها منها " الزوهار"و "الباهير"، أما الأول فقد تضمن مناهج تأويلية عديدة لا تعتمد على الدلالة الظاهرة للفظ وإنما تبحث في الدلالة الباطنية الخفية له، ومن بين المناهج" الزوهارية"و "البشاط"، و"الرمز" ودراش "ومنهج سود وهو منهج صوفي،وهو أهم المناهج التي تعتمدها القبالة في التأويل والتفسير لأنه يركز على النظرة الدقيقة لكلمات النص، كما يربط بين الحرف العبري وقيمته العددية وهو ما يسمى "بالجمطرية" وهو منهج يربط بين الكلمات بعضها ببعض بحسب قيمتها العددية ويتأسس هذا المنهج على ثلاثة أقسام: أما القسم الأول فيقوم على تحويل الكلمة إلى جملة، والثانية تتمثل في أخذ حروف من كلمات جملة ما ثم تستعمل الحروف بكلمة تدل معناها على التفسير الباطني لتلك الجملة، أما الجمطرية الثالثة فتقوم على تحويل الكلمات إلى أرقام، بحيث أن القبالي يرى أن لكل حرف عبري، قيمته العددية، ومن خلال الربط بينهما يصل المفسر إلى الحقيقة المتخفية وراء الحرف، أو الكلمة أو الجملة.

([49]) - د/ نفس المصدر -ص469

إضافة إلى هذه المناهج التفسيرية التي جاءت في كتاب "الزوهار"، هناك أيضا طريقة في التأويل أو التفسير التي تحدثت عنها الحركة الحسيدية،والتي تتخذ طابعا غنوصيا، لأن المفسر الحسيدي يرى أن الوصول إلى المعنى الخفي، لا يكون إلا بالاتصال بالله، وهذا هو الطابع الحلولي في التفسير القبالي، فالمنهج التأويلي الذي جاء به الحسيديون يفصل بين ظاهر اللفظ، والمعاني الباطنية.

وتعتبر حركة "حبد" الحسيدية المعاصرة أهم حركة في التفسير لأنها طورت نظرية توفق بين اعتماد الانفعال واعتماد الجانب العقلي والثقافي للمريد من أجل بلوغ الحقيقة.

كذلك اعتمدت القبالة على السحر في تفسيرها للنص الديني، فالسحر بالنسبة للقبالي طريقة فعالة في معرفة أسرار الكون وأحوال الخلق وكذلك في التواصل مع الإله، وفضلا عن تفسير القبالة للنصوص الدينية اهتمت أيضا بتفسير طبيعة الكون وطريقة الخلق ويوم الخلاص وكذلك فسرت بعض الرموز التي تتضمنها الديانة اليهودية، بل وقد استعملت هذه الرموز في تفسير العديد من المعتقدات اليهودية، وعليه يمكن القول على الصوفية اليهودية بأنها(ثيوصوفية) أي معرفة الإله من خلال التأمل والمعرفة الإشراقية الكونية الغنوصية فهي لا تهتم بالزهد وإفناء الذات الإنسانية في الذات الإلهية وإنما هو تصوف حلولي يتجه نحو الاتحاد مع الإله والالتصاق به وهو اتحاد يؤدي إلى وحدة الوجود، وهذه الأخيرة تؤدي إلى الكشف الصوفي لطبيعة الإله وإمكانية التواصل معه ثم التحكم فيه، ورغم أن القبالة تضم التصوف التوحيدي والتصوف الحلولي إلا أن هذا الأخير هو الأساس الذي ترتكز عليه القبالة وتفسيراتها للنص الديني.